رمضان
بين العادة والعبادة

رضوان سعداوي

شبكة الألوكة
www.alukah.net

رمضان بين العادة والعبادة

بسم الله الرحمن الرحيم.الحمد لله رب العالمين وبه نستعين.والصلاة والسلام الأتمان الأكملان على المبعوث رحمة للعالمين نبينا محمد وعلى الآل والصحب الكرام.أما بعد، يطيب لي أن أخط هاته السطور التالية للملمة جراح الأمة وتعديل سكة بوصلتها حول سبيل الفلاح وطريق النجاح.

بادئ ذي بدءٍ،مما لا يخفى عليكم ومما لاشك فيه أن رمضان شهر لا كباقي الشهور.فهو معظم حيث اختصه الخالق من بين سائر الشهور ووضع فيه نفحات فاقت غيره من المواسم والمناسبات،أيضا جعل فيه كرامات جليلة لعل أبرزها كرامة إنزال القرآن،وفتح الجنان وغلق النيران وتصفيد الشياطين وتيسير سبل الخيرات.كما جعل فيه ليلة هي أفضل الليالي على الإطلاق(وهي ليلة الشرف).كل هذا وغيره وربنا أكرم وأكثر.أيها الأحباب الكرام، رمضان هو الشهر المطهر وشهر الصبر وشهر القرآن والمغفرة والوقاية من رذائل الأخلاق والمزالق.رمضان مشتق من الرمض وهي شدة الحر وقيل سمي بذلك لأنه يحرق الذنوب حرقا ويُنْجِي صاحبه من النار:وأكرم بها من منقبة عظيمة جليلة لأمة الإسلام.

رمضان مدرسة بل جامعة وحده وأكاديمية تعليمية مجانية ذهبية،فهو شهر الأخلاق الفاضلة وشهر التداريب الميدانية وشهر النجاح والإنتصارات والتزكية.يا من يبحث عن النجاة،عن الهداية،عن التوفيق،عن الفلاح والمغفرة،وعن التغيير والسعادة والإعانة.أقبل ها قد أظلك شهر ذلك،فبادر وعجل بالدخول مع الداخلين والسالكين.كما أسلفنا رمضان شهر يتربى فيه المرء ويجاهد نفسه ويكتسب الأخلاق الفاضلة،شهر تهذب فيه النفوس والقلوب معا وتنعتق من مطباتها وآلامها وجراحها.شهر الإنتصارات على اللذات والشهوات والذات،شهر تسمو فيه الروح وتتذوق حلاوة الإيمان.قال أبو الفتح البستي

يا خادم الجسم كم تشقى بخدمته　　أتطلب الربح مما فيه خسران

أقبل على النفس فاستكمل فضائلها　　فأنت بالنفس لا بالجسم إنسان

رمضان شهر يتكافل فيه الجميع،شهر جمع من الخيرات مالا يعد ويحصى،شهر يصح فيه المرء.نعم كما لايخفى عليكم أن للصيام فوائد ومنافع شتى منها ما هو روحي نفسي،ومنها ما هو صحي بدني.بل هناك من يعاني من مرض فتاك كالسرطان وأصحاب أمراض الجهاز الهضمي وشفوا بالصيام.

رمضان بين العادة والعبادة

أرعني سمعك وافتح أذنيك وقلبك فقد جاء في الأحاديث والآثار أن الصوم جُنة[1]

وفي أحد الروايات والصيام جُنة من النار كجُنة أحدكم من القتال[2] بمعنى آخر أن الصوم وقاية لك ولكي من الرذائل وسيء الأخلاق وحصن حصين من الشهوات والنزوات والفواحش ومن لفح جهنم.ووقاية لك ولكي من الأمراض سيما الهضمية منها حيث تجتمع الجراثيم هناك. وكما مر معنا أن رمضان شهر الغنائم والإنتصارات بل لو طالعت صفحات التاريخ لوجدت أن بعض الفتوحات والإنتصارات في المعارك و الغزوات حصلت في ضيفنا هذا. رمضان ضيف كريم.يتوالى ويستمر الحديث عنه ويأبى القلم والكلمات إلا أن تستمر معه،فأجدني مكره لا بطل تحت سطوتهما جميعا.آه يا رمضان،آه يا رمضان،آه يا رمضان.لايزال بعضنا لايعرف قدسيتك وحرمتك عند الله.فأنت يا رمضان شهر خير وبركات وشهر تزكية النفوس وتهذيبها وتطهير للقلوب والأبدان من الأدران،شهر تطرأ فيه عمليتان جراحيتان غاية في الأهمية.العملية الأولى تخلية البدن والروح معا من الشهوات الدنيئة،أما العملية الثانية فهي تحليتهما بالفضائل والرغائب.نعم أيها الأحبة الكرام عمليتان ضروريتان لتحقيق المراد وجني الثمرات.

بعد هذه الديباجة حول هذا الشهر الفضيل وخصوصيته.لايزال ومع الأسف الشديد،السواد الأعظم لا يعرف حرمة لهذا الشهر ولا حقه ومستحقه،ولا ما هي ضوابطه اتجاهه بل ولا يعرف معنى،حقيقة،مغزى ومقصد الصوم.وما الصوم أصلا بل وما هي العبادة؟

أيها الأحبة الكرام الصيام هو صيام للروح والجسد معا.صيام عن الطيبات(طعام،شراب، جماع...)بمفهوم قاعدي عام،لكن الجزء الأهم و الحلقة المفقودة هي صوم الجوارح كلها لتحصيل طهارة وتزكية الروح والجسم معا.خصوصا تحقيق سمو الروح وحياة القلب.

يا خادم الجسم كم تشقى بخدمته أتطلب الربح مما فيه خسران

أقبل على النفس فاستكمل فضائلها فأنت بالنفس لا بالجسم إنسان(تقدمت الأبيات معنا)

فما فائدة صوم أحدنا عن الطيبات من الطعام والشراب....وعينه مفطرة،لسانه مفطر،سمعه مفطر،قلبه غافل،جوارحه مفطرة على المحرمات:من غيبة،نميمة،زور،وسماع الغناء وبصره يطلقه هنا وهناك ويشتم وقلبه ولسانه غافل عن ذكر الملك الديان.سبحان الله،يصوم عن الحلال والطيب ويفطر على الحرام الخبيث. فإذا كان يوم صومك كفطرك سيان فما

---

[1]سنن النسائي الكبرى2250،2249،2247،2246،2245، السنن الصغرى للنسائي2229،2228،2226،2225،2224،صحيح ابن خزيمة1890،مسند أحمد9949،مسلم1151،

[2]سنن النسائي الكبرى2252،2251،البزار2321،2319،مسند أحمد17909،17902،16278،16273،14669،9225،صحيح ابن خزيمة2125،1891،ابن ماجة1639،السنن الصغرى النسائي2231،2230،الطبراني في المعجم الكبير8386،8362،8360،المعجم الأوسط الطبراني53،

صمت أصلا.إذا كانت تلك الرذائل والمحرمات واجب تركها في سائر الأوقات من السنة،فما بالك حال الصيام وما بالك في شهر معظم.فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال:قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:"من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه"[3] وفي رواية أخرى من حديث أبي هريرة أيضا:"من لم يدع قول الزور والعمل به والجهل فليس لله حاجة أن يدع طعامه وشرابه"[4].

عن أبي هريرة،عن النبي صلى الله عليه وسلم قال":رُبَّ صائم ليس له من صيامه إلا الجوع،ورُبَّ قائم ليس له من قيامه إلا السهر"[5]

فمعلوم من الدين بالضرورة أن مكنون العبادات وجوهرها الأخلاق وروحها العمل،فإذا لم تثمر أثرا طيبا وخلقا نافعا وتغييرا إيجابيا على المرء أولا وعلى الجماعة ثانيا.فما فائدتها؟ وما قيمتها؟ تبقى فراغ وسراب على سراب،فهي عبادات جوفاء لا روح فيها كالصلاة بلا خشوع.(علم بلا عمل كشجر بلا ثمر.وهل الجزاء إلا من جنس العمل)كالحنظلة يجنيها صاحبها ثم لا يرضاها ولا يستسيغها.فهل ترضى بذلك،والجواب بينك وبين نفسك وحدك. يبقى هاهنا السؤال العريض المطروح إذا كان الأمر كذلك فلماذا واقعنا يستمر على ما هو عليه من سوء حال سيما في شهر رمضان؟لماذا تظهر سلوكات مشينة وترتفع نسبها في شهر الصيام؟

مع كل سنة ترى وتسمع العجب العجاب،ظواهر لا ترقى إلى مستوى الإنسانية بل الجمادات والعجماوات تستحي أن ترتكبها أو حتى أن تجرأ على الأمر.عطفا على ما سبق تجد ذاك يريد أن يفطر علنا ويصرح بها بلا حياء،يريد رخصة الإفطار بلا عذر وسبب ويريد تقويض أركان هذا الدين الحنيف،البعض منهم يفعل ذلك مقابل حصوله على المال الذي لا يغني عنه أمام الجبار ويتجرأ عليه.أمام تفريطه في جنب الله، فهو الخاسر الأكبر. قال النبي صلى الله عليه وسلم:"رغم أنف من أدرك رمضان فخرج ولم يغفر له"[6].فإن لم يُغفر لك في

---

[3]البخاري1903،أبو داود2362،الترمذي707،النسائي في السنن الكبرى3233،ابن خزيمة في صحيحه1995

[4]البخاري6057،النسائي في السنن الكبرى3235،3234،3232،أحمد في المسند10562،9839،ابن حبان في صحيحه3480،سنن ابن ماجه1689

[5]النسائي3319،3236،ابن ماجه في سننه1690،مسند أحمد9685،8856،ابن حبان في صحيحه3481،الحاكم في المستدرك1571،المعجم الكبير الطبراني 13413،السنن الكبرى للبيهقي8313،شعب الإيمان للبيهقي3369،الترغيب والترهيب للمنذري1646،تحفة المحتاج لابن الملقن991

[6]مسند البزار8465،8116،6252،4277،1405،مسند أحمد7451،صحيح ابن خزيمة1888 ،الفوائد لأبي بكر الشافعي187،تريتيب الأمالي للشجري602، 632،معجم الشيوخ لابن عساكر1362،شرح السنة للبغوي689 ،الأدب المفرد البخاري646 القاضي إسماعيل في فضل الصلاة على النبي15.وللمنذري في الترغيب والترهيب 2595(38)بلفظ:من أدرك شهر رمضان ولم يغفر له فدخل النار فأبعده الله قل آمين،فقلت:آمين. رواه أبو يعلى في مسنده،5922 وابن حبان في صحيحه907. وللمنذري أيضا 2592(35) بلفظ:من أدرك رمضان فلم يغفر له فأبعده الله فقلت آمين.أخرجه الطبراني في المعجم الكبير11115.وللمنذري أيضا 2593(36)بلفظ:ومن أدرك رمضان فلم يغفر له دخل النار فأبعده الله وأسحقه فقلت آمين.رواه الطبراني في الكبير12551.وللمنذري أيضا2591(34) بلفظ: بَعُدَ من أدرك رمضان فلم يغفر له،قلت:آمين رواه الطبراني في الكبير315،البيهقي في شعب اللإيمان1471،فضل الصلاة على النبي لإسماعيل19 .وللمنذري2596(39):ورغم أنف رجل دخل عليهرمضان ثم انسلخ قبل أن يغفر له.رواه ابن حبان في صحيحه908،فضل الصلاة على النبي للقاضي إسماعيل16 ،والمزي في تهذيب الكمال1849،ترتيب الأمالي للشجري633.وللمنذري2594(37):ومن أدرك رمضان فلم يغفر له فأبعده الله ثم أبعده فقلت آمين.رواه البزار في مسنده3790. وللمنذري3761(23): يا محمد من أدرك شهر رمضان فمات فلم يُغفر له فأُدْخِل النار فأبعده الله فقل آمين فقلت آمين.رواه الطبراني في الكبير2022 ،ترتيب الأمالي للشجري1365. وروى الحاكم في المستدرك7256 بلفظ:بُعْداً لمن أدرك رمضان فمن يغفر له قلت آمين.وروى ابن عدي في الكامل 1865بلفظ: أوأدركه رمضان أو ذكرت عنده فلم يغفر له فأبعده الله قل آمين فقلت آمين.وللبيهقي في الشعب3350 بلفظ:من أدرك شهر رمضان فصام نهاره وقام ليله ثم مات

رمضان فمتى يُغفر لك إذن.وآخر يسب ويشتم وآخر يأكل علنا ويلهو في ملاهي نهارية في ألعاب القمار ونواديها وآخر يقول لِزُمْرَتِه تعالوا بنا نقتل الأوقات حتى يحين وقت الإفطار. وآخر يحدث ضوضاء في المرفق العام،وتبدأ سباقات حرب الطرق قبل الإفطار بساعات قلائل. سبحان الله،كأن رمضان جاء ليفسد علينا أخلاقنا، والقائمة طويلة.....

فمعلوم من الدين بالضرورة ومن نواميس حياة البشرية أن سنن الله لا تتبدل ولا تتغير.

نريد التغيير ونحن غير ملتزمين بقوانينه وغير ملتزمين بشرع ربنا بل ولم نقم حتى بتبصر عيوبنا وتقبل أخطاءنا وزلاتنا وتغيير طبائعنا وعاداتنا.لم نتغير فكيف يحق لنا أن نطلب التغيير نحو الأفضل.

هذا لعمري في الورى بعيد،هيهات هيهات لما نريد ونشتهي.نريد التغيير ولم نسلك دربه، فعن أي تغيير نتحدث.قال تعالى:"ذلك بأن الله لم يك مغيرا نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم وأن الله سميع عليم"[7].وقال عز وجل أيضا:"إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم"[8] .

هذا بالإضافة إلى مظاهر أخرى كما تقدم ضربنا عنها الذكر صفحا لم نبسطها ولم نجردها واحدة تلو الأخرى إذ العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.والإسلام من هذه المظاهر براء كتعطيل الطرقات والخدمات والفضاءات....والأدهى والأمر تسمع عبارات يتلفظ بها بعض الأشخاص،تسمع مثلا آخر يقول لك بالعامية(مقطوع)وآخر(مرمضن)وغيرها من العبارات والسلوكات والممارسات المنحطة.لذلك أيها الأحبة الكرام أجملنا المهم من هاته المظاهر جريا على أسلوب منزل الكتاب،واللبيب بالإشارة يفهم.والأنكى من هذا وذاك حينما يحدثك بعضهم ويقول لك أنه مسلم حقا،مؤمن مع ما تحمله هاته الكلمة من دلالات وحمولة قصوى عن أي إسلام نتحدث وتتحدثون.فقط هو تشويه لصورة هذا الدين البريء وهي فقط مظاهر لا أقل ولا أكثر.إذ لو فهم هؤلاء الصيام حقا لما قاموا بتلك السلوكيات،فالمغاربة وغيرهم إلا من رحم الله بكل ألم وحسرة وأسف شديد فهموا رمضان والصيام في أشباع بطونهم بعبارة أخرى الصوم حاضر لديهم بمفهوم الإحتفالات والتباهي.وحاصل الأمر أنك

فلم يغفر له فدخل النار قل:آمين،فقلت:آمين.وللطبراني في الكبير649 بلفظ:ومن أدرك رمضان فلم يغفر له فأبعده الله قل آمين:فقلت آمين.وللطبراني في المعجم الأوسط899:رغم أنف عَبْدٍ أو بَعُدَ دخل عليه رمضان فلم يغفر له فقلت: آمين. رواه البيهقي في السنن الكبرى8504،القاضي إسماعيل في فضل الصلاة على النبي18.

[7] سورة الأنفال، الآية 54

[8] سورة الرعد، الآية 12

ترى الإسراف والتبذير يرتفع.إذا كما مضى لو فهم أحدنا الصوم لما رأيت هذا الوضع يستفحل بهذه الكيفية،بل لرأيت العكس تماما.

صنف فهم رمضان على أنه شهر الإستمتاع بالألعاب والسهرات الماجنة الصاخبة والمسلسلات التافهة،لايلقون بالا ولا يُعِيرون أي اهتمام له،حيث صاروا عبيدا و أسرى لشهواتهم ونفوسهم الدنية:تركوا أنفسهم بلا تزكية فغلبتهم.وصنف آخر يرى في رمضان أنه سجن لهم ينتظرون خروجه وانقضاءه على أحر من الجمر.وصنف فهم رمضان في كثرة الترف والبذخ والإسراف والإستعداد له بشتى أصناف المأكولات وغيرها.وصنف آخر يرى في رمضان فرصة للربح السريع،فيحتكرون السلع ويكنزونها ويرفعون الأثمان:منهم من لا يراقب ميزانه بل يتفننون في شتى أنواع المكر والخديعة.وصنف يظن أن رمضان كباقي وسائر الشهور،فهو بالنسبة لهم كَغَيْمٍ أظلهم ثم أَذِنَ بعد لحظات بالرحيل والزوال وهلم جر.

إلا من رحم الله إنه هو العزيز الرحيم.أما الممارسات في الأسواق،البيوت ودور العبادة فحدث ولا حرج.يبقى السؤال قائما:لماذا هذا الوضع المتردي والمنحط؟لماذا كل سنة تتكرر نفس المدلهمات والمشاهد أو بالأحرى أسوء و أفظع؟ألم يحن الوقت لقطع الحبل الممدود مع هذه التصرفات الفاسدة وإعمال المنطق والحكمة والفطرة السوية والتبصر في مآلات الأمور.ألا يجدر بنا وبكل واحد منا التفتيش عن الأسباب الكامنة وراء ذلك ومحاولة الوصول إلى الحلول بعد جلسات ووقفات مع أنفسنا.ألم يأن الوقت بعد لفهم مغزى الصيام والشهر الفضيل؟ألم يحن الوقت للسير على الدرب الصحيح وجني ثمرات العبادة.فإلى متى؟ وإلى متى الغفلة واللهو والإعراض عن الحق؟

فليبحث الكل عن ذاته ضمن مقاصد الشرع وليقف الكل وقفة تأمل مع نفسه ومحاسبتها وليبحث عن أخطائه وعيوبه ليشتغل عليها أولا ليرى بعد برهة ثمرات ذلك في نفسه وأهله وحياة الجماعة.

لقد أجاد أبو الأسود الدؤلي بقوله:

لاتنهى عن خلق وتأتي مثله　　عار عليك إذا فعلت عظيم

إبدأ بنفسك فانهها عن غيها　　فإذا انتهت فأنت حكيم

قال أحمد شوقي:

إنما الأمم الأخلاق ما بقيت　　فإنهم ذهبوا ذهبت أخلاقهم

قال القحطاني:

حصِّن صيامك بالسكوت عن الخنا أُطبق على عيناك بالأجفانِ

لا تمشِ ذا وجهين بين الورى شرُّ البرية من له وجهانِ

لا تَحسُدَنْ أحدا على نعمائه إن الحسود لحكم ربِّك شانِ

لا تسع بين الصاحبين نميمة فلأجلها يتباغضُ الخلانِ

ولقد أجاد القاضي أبو أمية ابن عاصم المرسي لما قال:

لا تَجْعَلَنْ رمضان شهر فكاهةٍ كيما تقضى بالقبيح فنونهُ

واعلم بأنك لن تفوز بأجره وتصُومَه حتى تكون تصونهُ

قال المقري التلمساني:

إذا لم يكن في السمع مني تصاون وفي بصري غض وفي مقولي صمت

فحظي إذا من صومي الجوع والظما وإن قلت إني صُمت يوما فما صُمت

قال شوقي:

وصل صلاة من يرجو ويخشى وقبل الصوم صم على كل فحشا

قال محمد بن عبد الرحمن:

في صيام الشهر طِبٌّ ليس يدريه طبيبُ

فيه أسرار يعيها صائم حقًا أريبُ

فيه غيث من صفاء ترتوي منه القلوبُ

فيه للأرواح سبح دونه الكون الرحيب

صائم في درع تقوى تنجلي عنه الكروب

قال أبو زيد إبراهيم:

يا أيها الشهر الكريم ومن به تسمو النفوس ويخشع الوجدان

فالصوم تزكية النفوس وطهرها ولكبح كل زرية ميزان

والصوم تربية الضمير فمن سما فيه الضمير و تألق الإيمان

كم صائم والصوم منه مبرَّأ وبرجسه يتفاخر الشيطان

صوم الجوارح أن تكف عن الأذى لا صوم في صوم به أضغان

ويقول الشاعر المغربي حمدون بن الحاج السلمي(1174-1232هجرية الموافق ل 1760-1817م) في صيام رمضان:

وَصُنْهُ عن كل ما يرديه من حَرَمٍ ولتعكس النفس عكس الخيل باللجم

ويقول شوقي أيضا:

يا مُدِيمَ الصوم في الشهر الكريم صم عن الغيبة يوما والنميم

ويقول معروف الرصافي (شاعر العراق الكبير. 1294-1364هجرية الموافق ل 1877-1954 م)

ولو أني استطعت صيام دهري لصمت فكان ديدني الصيام

ولكني لا أصوم صيام قوم تكاثر في فطورهم الطعام

إذا رمضان جاءهم أعدوا مطاعم ليس يدركها انهضام

وقالوا يا نهار لئن تجمعنا فإن الليل منك لنا انتقام

ختاما، نسأل الله القبول وأن يجعل ما كُتِبَ خالصا لوجهه الكريم وأن ينفع الجميع به إنه سميع قريب مجيب. كانت هذه كلمات مقتضبة حول موضوع جلل.فلنقبل على إصلاح أنفسنا ليصلح الخالق حالنا. والحمد لله رب العالمين وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين. والسلام على من اتبع الهدى.

رضوان سعداوي